

D.ALI GHENABZIA
 Université d'El Oued, Faculté des Sciences Sociales et
 Humaines, Département de Sciences Humaines,
 BP789,39000, El Oued, Algérie

ص ب 789,39000، الوادي، الجزائر.

قسم العلوم الإنسانية،

جامعة الوادي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،

الدكتور علي غنابزية

نشطات الدكتور أبو القاسم سعد الله وأهم كتاباته حول الثورة الجزائرية

عنوان المدخلية:

أيام 29 و 30 أفريل 2014

المنظم من طرف جامعة 8 ماي 45 قلمة - مخير الأبحاث والدراسات المغاربية

المشقة والنشوة الواقعة والرهانات

الملتقى الدولي حول:

الملخص

يدرس هذا المقال، فكر المؤرخ والمفكر، والمتقف الثوري، الدكتور أبو القاسم سعد الله، ويستعرض أهم نشاطاته في نطاق الثورة، عندما كان في ديار الغربية، وتصوره لكتابة تاريخها، ومبادراته في الكتابة حولها، في مقالات عدة، ومحاضرات شتى، وعرض بعض الآراء من خلال ما كُتب عنها من مختلف الأقلام الأجنبية والوطنية، مع تسجيل مواقف، وإعطاء توجيهات لكتابة تاريخها وفق المنهج العلمي، وبأقلام وطنية مخلصّة.

الخطّة العامة

المقدمة:

- 1) دور أبو القاسم سعد الله في الثورة التحريرية.
 - أ- التكوين السياسي والفكري للدكتور سعد الله.
 - ب - نشاطات وأعمال أبو القاسم سعد الله في الثورة التحريرية.
 - 2) مساهمة سعد الله في كتابة تاريخ الثورة:
 - أ - تصور سعد الله لكتابة تاريخ الثورة.
 - ب - مساهمته العملية في كتابة تاريخ الثورة.
 - 3) آراء سعد ومواقفه من الكتابات حول الثورة الجزائرية.
 - أ - آراء المؤرخ "سعد الله" حول الكتابات المنشورة.
 - ب - مواقفه من الكتابات الأجنبية والوطنية.
- الخاتمة
- قائمة المصادر المعتمدة.

نص المداخلة:

نشاطات الدكتور أبو القاسم سعد الله
وأهم كتاباته حول الثورة الجزائرية

الدكتور علي غنابزية - جامعة الوادي

المقدمة:

كان الشعب الجزائري دوما متفاعلا مع الجهاد والمقاومة، وبذل في أرجاء الوطن جهودا كبيرة، وقدم قوافل من الشهداء خلال القرن التاسع عشر، ورغم طغيان العمل السياسي، فيما بعد، بقي الشعب متلهفا للبذل والنضال الثوري، والذي توج بثورة نوفمبر التي استقطبت فئات شتى، وكان العنصر المثقف من أهم مجاهديها الأوائل، وتعددت أعمالهم، وتشعبت مجالاتهم، والتي هي محل بحث وتساؤل، وما زالت الكتابات شحيحة - في هذا المجال - وتحتاج إلى إثراء وتوسيع.

يتساءل سعد الله عن المثقف في الجزائر، بين المثقف الكاتب، أو الحامل لمشروع، أو المتفلسف في شؤون الناس والحياة، وهو حاضر بكتابته ولكنه غائب بفعاليته، وحاجة الجزائر إلى المثقف، الذي هو في رأيه (القائد وليس المثقف المنتج فقط. ويحضرني مثالان في الجزائر هما ابن باديس ومالك بن نبي. فهل عندنا اليوم واحد من هذين الرجلين؟)⁽¹⁾

أسئلة الإشكالية:

ويعتبر المرحوم أبو القاسم سعد الله من أبرز المثقفين الجزائريين الذين عاصروا الثورة عن قرب، واحتك بقادتها، وواكب بعض النشاطات السياسية والإعلامية فيها، عندما كان طالبا، وطرح الإشكال لديه في مواصلة الدراسة أو الانضمام للثورة بكل ثقله، ولكنه اهتدى إلى الاختيار الأول، لأنه رآه الاختيار الأنفع للثورة والجزائر، فكيف خدم الثورة من هذا المنطلق؟

(1) أبو القاسم سعد الله: حوارات، دار المعرفة، الجزائر، 2011 ص31.

لاستعراض بعض الآراء والمواقف من الكتابات حول الثورة من الأقاليم الأجنبية والوطنية على حد سواء.

منهج الدراسة:

تم استخدام المنهج التاريخي، بتتبع النصوص التاريخية من خلال كتاباته، وحواراته التي تضمنت شرحا وافيا للموضوع، وتم فحصها وترتيبها، والتعليق عليها، وبناء موضوع متنوع الأفكار، يقدم نبذة عن دور هذا المثقف في ثورة التحرير.

و الجدير بالتنويه في الأخير، أن الدكتور سعد الله، اعتمد على المنهج العلمي في الكتابة التي أنجزها، على قلتها، وحث الطلبة، ووجه الباحثين على اعتماد المنهج لكتابة تاريخها، وفق أسلوب دقيق، ويمكن الوقوف عند أهم عناصرها في هذه المداخلة المتواضعة.

(1) دور أبو القاسم سعد الله في الثورة التحريرية:

أ- التكوين السياسي والفكري للدكتور سعد الله:

كانت البيئة الأولى للحياة التي صقل فيها فكر هذا المؤرخ الوطني، ونضجت روحه، وبدأ يكتشف عالم الثقافة ويحتك بأصحابها، بصفة مباشرة، في بلدته " قمار " إحدى المدن الهامة بوادي سوف، التي بذر فيها فكر الإصلاح الشيخ عمار بن الأزعر سنة 1931، بعد مشاركته في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولما شرع في نشاطه، كان الفتى أبو القاسم صبيا يدب في طفولته الأولى، ولما عايش العلماء في مرحلة التعلم، تفتح ذهنه على نشاط خاله - الحفناوي هالي - الإصلاح، وارتباطه بالشيخ محمد الطاهر التليلي، الذي شجعه، وحث والده على - إرساله - لمواصلة الدراسة في جامع الزيتونة المعمور.

وكانت الزيتونة فضاء رحبا للنشاطات الفكرية والسياسية، وزاخرة بالأحداث التي تركت بصماتها في نفسه، وفي مقدمتها الإضرابات والمظاهرات التي نظمها الطلبة، مطالبين بتغييرات جذرية في نظام التعليم، ويشير إلى أثرها في نفسه: " ... ورغم أن الشكل الظاهري لتلك الأحداث كان طلابيا، فإن المعنى البعيد لها كان سياسيا، وقد أثر كل ذلك في مجرى حياتي"⁽¹⁾ ولكنه لم ينخرط في نشاط سياسي بصفة مباشرة، كما أشار في موضع آخر: (فاني رغم

(1) أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 44-45.

مخالطتي ومشاركتي في الحياة الطلابية بتونس لم أكن طالبا "متسيسا" مثل بعض طلابنا الذين كانت السياسة تجبرهم على المعرفة التاريخية، وقد ظلت كذلك إلى سنة 1955 تقريبا).⁽¹⁾ وقد حدد ثلاثة اتجاهات أثرت في منحني حياته الفكرية، وكان لها انعكاساتها على نشاطه السياسي ولو بعد حين:

أولا: التربية الدينية والأخلاقية التي تلقاها بجامع الزيتونة، التي ربطته بالقيم، وبثت فيه الاستقامة، والخلق الكريم.

ثانيا: التربية الوطنية التي اكتسبها باحتكاكه بزملائه، وترديده للأناشيد، وسماعه للحوارات، (كنت أحفظ الكثير من أناشيد حزب الشعب التي تثير الحماس وتذكر بأمجاد الماضي وتلح على الوحدة الوطنية وتبث روح الاستقلال والحرية ومن الأناشيد التي كنت أحفظها بتونس حيو إفريقيًا، وناداني مصالي... وفداء الجزائر، مرورًا بـ "من جبالنا طلع" وشعب الجزائر مسلم).⁽²⁾ ومشاركته في نشاط جمعية الطلبة الجزائريين سنة 1948، ومشاركته مع زملائه في العطل - في المدن الجزائرية - بتمثيل رواية "ال خليفة العادل" سنة 1953. وواكبها القراءة في البصائر التي اشترك له والده فيها منذ 1948.

ثالثا: التربية الأدبية التي حصل عليها من خلال مطالعته في كتابات الشرق العربي، وخصوصا الصحف، مثل " الرسالة " و"أبولو" و"والآداب". ودعم ذلك بالكتابة - في مرحلة الزيتونة - في صحف " النهضة " و"الأسبوع" التونسيين. و"البصائر" الجزائرية، و"الآداب" اللبنانية.⁽³⁾

وتظهر الروح الثورية - في وقت مبكر - مجسدة بقلمه، عندما دبجت أنامله مقالا بعنوان "أمة المجد في الميدان"، ويقول: لا أدري كيف خطر ببالي، وقد نشر في البصائر بشكل بارز، وفيه حديث عن شمال إفريقيا والتوجه نحو الحرية والاستقلال. كذلك قصيدة "غيوم" التي أشار

(1) أبو القاسم سعد الله: قضايا شائكة، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 130.

(2) أبو القاسم سعد الله: قضايا شائكة، ص 133.

(3) منطلقات فكرية، ص 45.

فيها إلى الحرية والاستقلال، والثورة مازالت لم تندلع.⁽¹⁾ ونشرت في العدد 264 من البصائر في 26 مارس 1954، ومما ورد من صرخات مدوية، لكسر طوق الظلم:

هامة الطغيان سكرى

برصاص الحريات

فتهاوت للجحيم

ثورة الحق الغضوب

وانتصار الكائنات

مهبط الوحي الإلهي

وشعاعات الخلود⁽²⁾

وذهب أبعد من ذلك، عندما تفحص في واقع الأمة، واتجاهها نحو تحرير الأوطان، ببذل الدماء الغزيرة فداء، وإيماننا بالرسالة الملقاة عليهم:

أمة العرب جميعا

قد تتاددت بالكفاح

وانتهى الوعي لديها

بتباشير الصباح

فغدت تبعث روحا

في الشباب لتحقيق

أمل الأوطان فيهم

بدماء تتدفق

آمن الأحرار منها

برسالات الوطن⁽³⁾

(1) مراد وزناجي: حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله، منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص ص 26-27

(2) أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 96.

(3) الزمن الأخضر، ص ص 96-97.

وكتب في صائفة 1954، موضوعا بعنوان : أرض الملاحم في سبيل اليأزة جزائرية" ونشور عندئذ في البصائر ومجلة الآداب البيرونية، معبرا بذلك عن روح التحرر. (1) وإحساس بقرب الثورة على الطغيان، وقد عبر عنها بالتنبؤ: (... ويبدو أن أرض الملاحم كان نوعا من التنبؤ لأنني تحدثت فيه عن الجزائر الملحمية قبل الثورة ...) (2)

ب - نشاطات وأعمال أبو القاسم سعد الله في الثورة التحريرية:

اندلعت الثورة في وقت كان فيه سعد الله طالبا في الزيتونة - في اللحظات الأخيرة . ووصل إليه خبرها وهو داخل لإجراء الامتحان النهائي، ومباشرة غادر تونس في 07 نوفمبر 1954 إلى العاصمة الجزائرية، ووطأت قدمه أرضها لأول مرة، (3) وعاش سنة كاملة مدرسا في مدارس جمعية العلماء، وهو حذر يتربق ما يؤول إليه الحال، وكانت مشاركته في الثورة عن بعد، ويمكن تلمسها في الأعمال التالية:

- تقديم دروس في الوعي الوطني: كانت مهمته تدريس الصغار، وفي المساء يقدم دروسا للكبار في التاريخ الإسلامي: (... وكانت الثورة على أشدها" ربيع 1955". وكان بعض الشباب يبدو مرتبطا بالثورة، بدليل أنهم يدفعونني إلى التعمق في التاريخ الإسلامي، والحديث عن شهداء الإسلام، والمعارك، والأبطال، وعن نضال المسلمين الأوائل وتضحياتهم. يومها، كنت مدرسا فقط، لكن الآن وعندما استرجع الذكريات فإنني أشعر لماذا كان أولئك الشباب يلحون علي في ذلك النوع من الأسئلة، ولسان حالهم يقول "هل من مزيد" ؟ !) (4) ويوازي ذلك نشاطه الفكري.

- المساهمة في الثورة بالشعر والكتابة الأدبية: (... ثم جاء الانشطار بدوي أول نوفمبر فكانت فاتحة الكلمة المتحدة التي عبرت عنها قصائد (طريقتي) (وأغنية المزارع والحقول) (واحتراق)، ثم تأجبت الثورة والتحكم (كذا) والتحق بها الشعب فتأجبت أيضا الكلمات فأصبحت

(1) قضايا شائكة ، ص 133.

(2) منطلقات فكرية، ص 46.

(3) نفسه، ص 46.

(4) مراد وزناجي، ص ص 38-39.

بندقيات ومدافع، والتحم الشاعر بشعبه كما التحم الشعب بالثورة) .⁽¹⁾ وإلى جانب القصائد المتعددة، اصدر مجموعته الشعرية "النصر للجزائر سنة 1957".⁽²⁾ وكانت قصائده تقور بالثقة في الشعب، والأمل في التحرر، ونجد ذلك في قصيدته "احتراق" التي كتبها في الأبيار في 5 يناير 1955، ويقول في بعض أبياتها:

أيا شعب أنت وجودي وشعري
وإيماني الفائض المستراق
وأنت الكيان الذي لن يذوب
إذا ما الوجود عراه المحاق
أحالك - ظلما - زمان بغي
جحيما يفوح بلحم الرقاق
ولسنا نؤمل غير اعتاق
يعيدك خلدا، نعيمك يغري.⁽³⁾

ويشير في قصيدة "طريقي" بتاريخ 15 مارس 1955 إلى تحطيم القيد(الاستعمار) والعيش في رحاب الحياة(الاستقلال):
حطموا القيد وغنوا للحياة
وافتحوا نافذة الأفق الرحبية
واعشقوا النور حياوات خصيبة
بيد أني لم أجدهم في طريقي
يا رفيقي !⁽⁴⁾

ويشير إلى الثورة في قصيدته "أنشودة المزارع والحقول" بأسلوب بليغ، ورمزية أدبية، وفي

(¹) حوارات، ص 35-36.

(²) منطلقات فكرية، ص 48.

(³) الزمن الأخضر ، ص ص 131-132.

(⁴) نفسه، ص 144.

ثنايا الصور البلاغية تتجلى الدعوة للحرية، بعد استنفاد الطاقة، والحصول على الحق بحد السلاح، والذي أشارت له القصيدة بصراحة، ولكن البصائر هذبت كلمات الشطر الذي احتواه، وكتبها في 28 مارس 1955، ومما ورد فيها:

يا مترفين

أنا هنا، أبدا هنا

ذعرا وإعصارا ونارا

لا شيء يمنع سيلنا

إن قعقت في وجوهكم عزماتنا وسلاحنا

أنا هنا، أبدا هنا

نمشي على الشوك الحديد

ونشيد دنيا من أمانينا الحبيبة

دنيا طليقة

في أرضنا الملائى بطاقات الحصيد

سنعيش أحرارا وصيد

في أرضنا البكر... الولود !⁽¹⁾

وسرعان ما غادر الشاعر بلده، وهو يتطلع إلى أفق أعلى، ويرى أن يخدم بلده، ويساند ثورته، ولم تتضح صورة العمل الميداني المنظم، والتي كانت فرصتها في القاهرة التي حل بها في 24 سبتمبر 1955،⁽²⁾ وانتظم كطالب تحت رعاية جبهة التحرير الوطني، وصار لاحقا يتعاطى منحة من مكتب الجبهة بالقاهرة، عن طريق منظمة الطلبة الجزائريين. وتحدث عن تبلور العاطفة الوطنية، والثورية العملية، ونتركه يعبر عن ذلك: (وفي القاهرة تبلورت في نفسي عاطفتان: أولاهما الوطنية السياسية. فالجزائر لم تعد في نظري هي الأسرة والقرية والحدود الجغرافية ونحو ذلك، ولكن أصبحت تعني عندي كل أهل القطر الجزائري بقطع النظر عن

(1) الزمن الأخضر، ص ص 147-148.

(2) مراد وزناجي، ص 47.

جهاتهم، وأحزابهم واتجاهاتهم، وعلى هذا الأساس تطوعت في جيش التحرير الوطني، وساهمت في حملات جمع التبرعات للجزائر، وشاركت في النشاط الطلابي الجزائري كعضو وكمسئول، ومثلت اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين في عدة مناسبات، واشتغلت في مصالح جبهة التحرير الوطني.

أما العاطفة الثانية التي تبلورت في نفسي خلال وجودي بالقاهرة فهي القومية العربية... ويدافع هذه العاطفة تطوعت في المقاومة الشعبية زمن الاعتداء على مصر، وتعرفت على الاتجاهات السياسية في الوطن العربي...⁽¹⁾

وكان يشارك في مختلف النشاطات الوطنية، ويحي ذكرى الثورة - إلى جانب الفاعلين من الشخصيات التاريخية - مثل الاحتفال الذي أقامه نادي طلاب المغرب العربي في مقره بالقاهرة يوم 2 نوفمبر 1957، وحضره أحمد توفيق المدني، وبن يوسف بن خدة، وكان بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، وألقى سعد الله كلمة مطولة باسم الطلبة الجزائريين، واستهلها بقوله:

(أيها الاخوة... عندما نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر، لا نحتفل بها كجزائريين، ولا نحتفل بها كمغاربة وإنما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد وهدف واحد ووطن واحد... إننا نحتفل بها كعرب لأن الثورة في الجزائر لم تكن في يوم من الأيام إلا عربية صميمة نابعة من قلوب الملايين العربية المتمردة معبرة عن آمالها في الوحدة والتحرر ومجسمة للإرادة العربية التي لا تقهر مهما طالت بها السنون وتكاثفت من حولها السحب).⁽²⁾ وأسهب في الحديث عن منطلقات الثورة، وإمكانياتها المتواضعة، والروح الثورية القوية التي يمتلكها الإنسان الجزائري، وأعمال الاستعمار الإجرامية في حق الشعب، الذي انتفض لاسترجاع حريته وكرامته، وحرمان الطلبة من حقوقهم، فكانوا وقودا لثورتهم، ونبه في الأخير إلى تكاثف جهود العرب الذين تظلمهم القومية، ليقوموا في صف واحد لدك عروش الظلم والطغيان، وختم ذلك بالعبارات التالية:

(... لقد أعلنت هذه الثورة العربية الصميمة أنها ليست ثورة الجزائر وحددها وليست ثورة المغرب العربي فقط وإنما هي ثورة العرب جميعا... هي الوجه الحقيقي للطاقة العربية المشعة

(1) منطلقات فكرية، ص 48.

(2) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، ج2، 224.

رغم الطلي والظلام والكثافة التي وضعها الاستعمار على ذلك الوجه... ومن هنا كان انتصار الجزائر في المعركة انتصارا لفلسطين الجريحة والجنوب العربي المكافح.. انتصارا لمصر وسوريا في صراعهما التحرري.. انتصارا للقومية العربية في كل مكان⁽¹⁾ وكان مسئولا للشؤون الثقافية في اتحاد الطلبة، ودائم الاحتكاك بالشخصيات التاريخية، وذكر منها: (أسماء كثيرة تقريبا كل القيادات، من فرحات عباس، إلى بن يوسف بن خدة، إلى كريم بلقاسم، بلعيد عبد السلام، الأستاذ مالك بن نبي، إبراهيم مزهودي، وأوعمران، والإبراهيمي وتوفيق المدني ومحمد يزيد وعبد الحفيظ بوصوف وعبد الحميد مهري وغيرهم، حيث كنا نلتقيهم بمناسبة الأعياد وغيرها" ولنا صور مع بعضهم" وكنت أدعو بصفتي مكلفا بالنشاط الثقافي بعض الشخصيات لإلقاء محاضرات. وهكذا تواصل النشاط الطلابي في إطار جبهة التحرير بالمشرق العربي، ممثلا بفروع الرابطة ثم الاتحاد...⁽²⁾). وهذا الاحتكاك مكنه من حضور الإعلان عن الحكومة الجزائرية المؤقتة في 19 سبتمبر 1958 في فندق الكونتنتال بساحة إبراهيم باشا.⁽³⁾ بعد انتهائه من الدراسة في القاهرة سنة 1959، اشتغل في مصالح جبهة التحرير بالقاهرة، راقنا باللغة العربية في وزارة الثقافة التي كانت وليدة العهد، كمل اشتغل بالمكتبة التابعة للحكومة المؤقتة التي كانت تضم الكتب المهداة إليها.⁽⁴⁾

ولما سافر للدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1960، كان يعتبر دراسته جهادا ودفاعا عن بلاده: (... إن الجزائر كانت في ثورة حياة أو موت، وقد كنت اعتقد بحرارة أن أقل ما يمكن أن أخدم به الوطن في تلك اللحظات العصيبة هو أن انجح في مشروعتي...⁽⁵⁾) وحينئذ واصل بعض الأعمال التي سبق ممارستها في القاهرة ، بمسؤولية وإقدام: (ومنذ وصولي انضمت إلى فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وإلى منظمة الطلبة العرب بأمريكا وكندا، وإلى جمعية الطلبة الإفريقيين بمنيسوتا التي ساهمت في إنشائها ثم آلت إلي رئاستها.

(1) نفسه، ص ص 232-233.

(2) مراد وزناجي، ص ص 52-53.

(3) مراد وزناجي، ص 128.

(4) نفسه، ص 57.

(5) منطلقات فكرية، ص 50.

وبالتعاون مع الأخوة الجزائريين في الفرع مثلت الاتحاد في عدة مناسبات وطنية وعالمية من بينها الندوة العلمية للطلاب التي انعقدت بنيوهمشير سنة 1962 ومؤتمر الاتحاد نفسه الذي انعقد لأول مرة في الجزائر في السنة نفسها.⁽¹⁾ وكان مقر إقامته حافلا بالنشاطات التي يقيمها تعريفا بالثورة: (ولما كنت الجزائري الوحيد في حي جامعي يغص بأكثر من أربعين ألف طالب فقد عملت بالتعاون مع الطلبة العرب والإفريقيين على التعريف بالثورة الجزائرية وأهدافها. وذلك بإحياء ذكراها في كل سنة، وتوزيع المطبوعات التي كانت تصلني من مكتب جبهة الوطني بنيويورك، وجمع التبرعات للاجئين، وعرض صور الكفاح المجيد).⁽²⁾ وكان للثورة دورها في دفعه للتخصص في التاريخ، والتركيز على تاريخ الجزائر، رغم تخصصه في تاريخ أوروبا، ذلك "أن الثورة نفسها قد جعلت كل جزائري يكتشف نفسه من جديد، وبالتالي يكتشف تاريخ وطنه وشعبه وحضارته، وقد كانت الثورة في حد ذاتها تصحيحا للتاريخ الوطني".⁽³⁾

2) مساهمة سعد الله في كتابة تاريخ الثورة:

كانت للدكتور سعد الله مساهمات عديدة، سواء في التنظير لكتابة تاريخ الثورة، أو مباشرة بعض الأعمال بنفسه، ويمكن الوقوف عند حدود ذلك:

أ. تصور سعد الله لكتابة تاريخ الثورة:

يعتبر الكتابة في تاريخ الثورة ما زالت محدودة، ويرى ضرورة المبادرة بالكتابة، ويضع مجالات الكتابة ويحدد منهجيتها، لدى كل فئة مسئولة عن ذلك:

أولاً- لم يكتب تاريخ الثورة: (تاريخ الثورة لم يكتب بعد، وهو مشروع كما تعلمون، ذو جوانب عديدة من جهة الاختصاص " تاريخ سياسي - دبلوماسي - اقتصادي - عسكري - إلخ". ويحتاج إلى مادة وجهد. ولكن هذا ليس عائقا دون الكتابة فيه. وهناك تعلات كثيرة يقدمها بعض

(1) نفسه، ص 51.

(2) نفس الموضع.

(3) منطلقات فكرية، ص 60.

الكسلاء، والمثبطين وذوي الأغراض الخاصة الذين يتصورون كتابة تاريخ الثورة على انه عبارة عن بيان سياسي يحكم على هذا بالوطنية وعلى ذلك بالخيانة.⁽¹⁾

ثانيا- ضرورة المبادرة لكتابة تاريخ الثورة: لا بد أن يتصدى لها المختصون، ولا يكفي مجرد الجمع والحفظ للوثائق - على أهميته - ولكن الكتابة الحقيقية، لا ننتظر الكرامات التي تجعل التاريخ مكتوبا، لأن زمنها ولى وانتهى: (الظاهر أن هناك نية خالصة وإرادة طيبة لحفظ وثائق الثورة، أما كتابة تاريخ الثورة فقضية أخرى، وتأكد انه لا بد من البداية ولو كانت فاشلة، لأن الشعب الجزائري لن ينهض ذات صباح فيجد تاريخ ثورته مكتوبا بأقلام الملائكة، ذلك أن عهد الكرامات في هذا المجال قد ولى ومضى).⁽²⁾

- ويرى أن تاريخ الثورة يمكن أن تتناوله الأقلام، حسب الاختصاصات: (... مثلا يمكن للمؤرخين أن يتناولوا جوانب من التاريخ العسكري والدبلوماسي والسياسي. ويمكن لعلماء الاجتماع والاقتصاد أن يتناولوا جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للثورة ممثلا في التموين والمساعدات والصحة والسجون والمحتشدات والفئات الاجتماعية التي التحقت بالثورة وعلاقاتها بالاقتصاد والزراعة والتعليم والقضاء. كما يمكن للأدباء أن يتناولوا جوانب منها أيضا، كالإنتاج الثقافي عندئذ والأدب الشعبي الذي أنتجه الناس، وتخليد المواقف والرموز في أشكال أدبية كالفقصة والرواية).⁽³⁾

كما يرى الفرز في الكتابة، بين ما هو ضروري لكتابته آنيا، وآخر يمكن تأجيله لعدة اعتبارات ذاتية عند صناع الحدث، فالبعد الزمني في الكتابة لا بد من تقديره: (ولكن تاريخ الثورة لا يحتم الآن الكتابة عن كل شيء جرى فيها لسببين اثنين: الأول أن الوثائق غير متوفرة بكل يجعل الأحكام تصدر عن موضوعية ونزاهة "ولا يمكن كتابة الحادثة التاريخية بصنف واحد من الوثائق"، والثاني أن البعد الزمني ضروري لبعض الأحداث لتأثيرها على الأحياء وحياة الناس في الوطن. فليس كل ما جرى في الثورة من قرارات ومحاکمات ومواقف يمكن نشرها اليوم. كما

(1) حوارات، ص 31.

(2) قضايا شائكة، ص 147.

(3) حوارات، ص 157.

أن علاقاتنا ببعض الدول والأحزاب والأفراد في العالم قد تكون محرجة إذا نشرت الآن⁽¹⁾.
ثالثا. حول منهجية كتابة تاريخ الثورة: ولما كان من حق الشعب أن يعرف مآثر ثورته، وإن تدرس للأجيال، فالحال يقتضي كتابتها بمنهجية مضبوطة، وهذا ما أشار إليه بقوله:
(وفيما يخص المنهجية اعتقد أنه يمكن كتابة تاريخ الثورة بالطرق الثلاثة التي ذكرتها في عدة مناسبات أخرى وهي:

1. الطريقة الرسمية: وذلك بتبني الدولة لكتابة هذا التاريخ والإشراف عليه وتوجيهه وتوفير الوثائق له ونشره بعد كتابته. ومن الممكن الشروع في ذلك من الآن.
2. الطريقة الشعبية: وذلك بتولي جميع الكتاب، سواء كانوا صحفيين، أو أدباء، أو سياسيين، أو هواة تاريخ، والإسهام في عملية الكتابة، لأن التاريخ ليس ملكا للمؤرخين الاختصاصيين فقط، فلأقلام المذكورة دور كبير في جعل التاريخ في متناول الجميع.
3. الطريقة العلمية: واعني بذلك تولي المؤرخين الاختصاصيين في أقسام التاريخ بالجامعات الجزائرية كتابة تاريخ الثورة حسب المصادر المتوفرة وطبقا للوثائق. وهذا في نظري ما يزال لم يحن وقته. كما أن الوثائق ما تزال غير متوفرة. فإذا تناول احد الباحثين موضوعاً وتوصل فيه إلى نتائج حساسة، فمن الممكن حجب هذه النتائج في الجامعة إذا كان نشرها يضر بالآخرين أو بالمصلحة العامة⁽²⁾. وهو يرى أن هناك منهجا واحدا لكتابة التاريخ، وهو المنهج العلمي، الذي يعتمد على فيه المؤرخ على كل الأدوات التي توفرت له، والاطلاع على المواقف، والنظريات، والمدارس، (... ولا شك أن الثورة الجزائرية، باعتبارها حركة جماهيرية، في حاجة إلى هذا المؤرخ المتشبع بنظريات وأحداث العصر ومسيطر على مادته وأدواته⁽³⁾. ويعتبر سعد الله صاحب هذا التوجه ومشروعه هو كتابة تاريخ الثورة الجزائرية، في إطار استكمال السلسلة حول تاريخ الحركة الوطنية، ويمثل الجزء الرابع منه، فهل تحقق ذلك؟⁽⁴⁾

(1) نفس لموضع.

(2) حوارات، ص 39. أجري الحوار في سنة 1988.

(3) أبحاث وآراء، ج2، ص ص 236-237.

(4) حوارات، ص 144.

ب - مساهمته العملية في كتابة تاريخ الثورة:

كتب سعد الله في تاريخ الثورة، عدم مقالات، وألقى المحاضرات التي تضمن إشارات لطيفة لتاريخ الثورة، ولكنها محدودة، ولم ترق للكتابة الشاملة التي تمنى تحقيقها:

- المساهمة ببعض المحاضرات حول قضايا ومسائل في تاريخ الثورة، ودفع المشاريع التي تنظمها الجهات الرسمية، مثل سلسلة المحاضرات التي برمجتها المنظمة الوطنية للمجاهدين خلال سنة 1987، وحينها قدم محاضرة ارتجالية في البليدة بعنوان " الثورة الجزائرية في الفكر العربي" ثم قام بكتابتها ونشرت في مجلة أول نوفمبر عدد 87، نوفمبر 1987.

وهو يلفت الانتباه إلى جهل العرب لتاريخ الثورة، لعدة اعتبارات، من أهمها غياب الزعيم مثلما هو في بلدان المغرب العربي، ومنهم محمد الخامس في المغرب، والسنوسي في ليبيا، وبورقيبة في تونس، (أما الثورة الجزائرية فلم يقدها حزب أو زعيم. كانت ثورة شعبية من أول وهلة ولم تكن فلسفتها المعلنة شرقية أو غربية، بل كانت تحريرية نابعة من صميم الواقع الجزائري - العربي، معبرة عن هموم الإنسان المضطهد حيث كان. ومن ثمة تعلق بها الجماهير العربية بقطع النظر عن النظم الواقعة تحتها... كما وجد فيها المفكرون العرب الرمز البديل بعد فشل مختلف الرموز الأخرى منذ 1948). ⁽¹⁾ كما ركز عن الكتابات الجزائرية والعربية التي خاضت في شؤون الثورة.

- وهو يرى أن التاريخ سلاح، وكيف حاولت أطراف التأثير عن الثورة، وإزاحة المشروع الحضاري الذي ارتكزت عليه الحركة الوطنية والثورة، ورجحت الكفة للتيار العلماني، وتحكمه في مفاصل السلطة بعد الاستقلال، وهذا اثر على الوضع، وتضرر من ذلك تاريخ الثورة: (وحيث انطلقت الثورة كانت الكفة لصالح التيار الاستقلالي بالتحالف مع التيار التقليدي. ولكن تطورات الثورة، ولاسيما بعد 1956 جعلت الكفة تميل نحو التيار العلماني المتحالف مع النخبة السياسية الوسيطة، وكانت هذه القوى تعمل على تحقيق جزائر علمانية - تقدمية مستقلة ولكن تنظر في اتجاه الغرب وفرنسا بصفة أخص. وقد أحست التيارات السابقة للثورة بأنها قد تخلفت بعد أن خرج القطار عن سكوته المرسومة. ولما اعترف العدو بالاستقلال ربطه بقيود تجعل من

(1) أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص ص 75-81.

الصعب على تلك التيارات أن تعود إلى الساحة لتنفيذ برامجها الوطنية وإن عليها فقط أن تعيش حتى تلتف أنفاسها طبيعياً، تماماً كما فعلت فرنسا مع الطرق الصوفية التي كانت تتأوتها فخرتها إلى أن لم يبق لها أي نفوذ على العامة ولا تهدد الوجود الاستعماري).⁽¹⁾

ونجده يكتب عن افتقاد الثورة لفلسفة نابعة من منظرين، مثلما هو عند الشعوب الأخرى، وإنما انطلقت - في الجزائر - بعفوية، فلسفتها هي هوية الشعب ومقوماته الشخصية، التي حركته، وهي تدحض الكتابات العلمانية، والتغريبية: (غير أن الثورة وقد انفجرت أصبحت أكبر من قدرة القادرين على التحكم فيها، وهنا يجب أن نعرف أن العديد ممن انضموا إليها إنما جرفهم سيلها، ولم يكن ذلك منهم عن عقيدة واقتناع. وقد ظلوا طيلة السبع سنوات والنصف راكبين موجة اعتى من قدرتهم على التحمل. كانت الثورة شعبية، مدفوعة بعبارات " الله أكبر " وكلمة "الجهاد" وحتى الذين فجروها كانوا مجهولين عند عامة الناس. ومنذ البداية حيّدت الثورة الزعامات المعروفة مثل مصالي والإبراهيمي وغيرهما من الأسماء المعروفة. لقد ولدت الثورة عندنا دون أن يكون لها روبسبير أو لينين أو ماو تسي تونغ، ولا حتى بورقيبة. بل لم يكن للثورة عندنا فلسفة فيلسوف ولا صحيفة ميثاق، عدا القرآن الكريم وما اشتق منه من عناصر الحضارة. ولم تكن وثيقة الصومام نفسها سوى عمل تنظيمي أكثر منها عملاً فكرياً لميلاد إنسان جديد).⁽²⁾

كما كتب عن بعض الفئات، مثل دور جمعية العلماء في الثورة: (إن جمعية مثل جمعية العلماء من الطبيعي أن يكثر الجدل حول مواقفها وتفسير آراء قادتها... ونعتقد أن أعضاء جمعية العلماء كانوا من دعاة الثورة ومن المتحمسين لها طيلة ممارستهم لوظائفهم، دون الربط بين 1936 أو 1945 أو 1954. ذلك أن مشروعهم ثوري في الأساس) . وبين كيف كانت تتقرب الجمعية قيام الثورة، وترثت في الحكم عليها ولكنها أيدتها، وبقيت متحفظة عن الجبهة، ولكن قادتها تصرفوا بحكمة: (فمن جهة رخصوا للمعلمين والمديرين والمفتشين بالقيام بالمهام الوطنية، كل في مجاله وعلى عهده الشخصية. فقام هؤلاء بالتطوع والاتصال والربط بين

(¹) أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، دار المعرفة، الجزائر، 2011 ص 89.

(²) أبحاث وآراء، ج4، ص 14.

النواحي والولايات، ومن جهة أخرى استمرت الجمعية رسميا في نشر التعليم كغذاء لعملها الوطني - السياسي، والمعروف أن القرار الأخير المتعلق بمصير الجمعية قد اتخذ في فاتح سنة 1956. أما الأفراد من الجمعية فقد تحملوا مسؤولياتهم منذ البداية، كما ذكرنا). ووضح كيف أخلصت للثورة ولم تبدل ولم تغير: (إن الجمعية لم تعارض الثورة بل دعت إليها على لسان رئيسها، كما أشرنا. ولم تنحرف عنها بعد الانضمام إليها كما فعلت بعض التشكيلات السياسية الأخرى. وإنما اندمجت فيها اندماج المؤمن بحتمية النصر وحتمية الدورة التاريخية الجديدة التي بشرت الشعوب بالحرية والاعتناق. وقد عانى أعضاؤها وتلاميذها القتل وذاقوا طعم الاستشهاد، وتعرضوا للتعذيب والانتقام، ودخلوا السجون والمحتشدات، وخدموا الثورة في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والإعلامية، إلى أن تحقق الاستقلال). (1)

- التاريخ لمعركة غوط شيكة بوادي سوف - 1955:

تعتبر معركة غوط شيكة التي وقعت بوادي سوف في 10 أوت 1955، ومن أهم المعارك في المنطقة الصحراوية، في وقت كانت العمليات الثورية تعطي دفعا قويا للثورة، وتمد في عمرها، وتبعث فيها الروح من جديد. وهذا ما دفع سعد الله إلى الكتابة عنها، فضلا عن الجانب العاطفي، لكونها تقع في المنطقة التي ولد في أطرافها، إضافة إلى توفر الفرصة في ذلك، وخوفا من ضياع المعلومات سدى. ورغم ذلك فقد قدم للحديث عنها بكلام فيه خوف، وتحفظ، فقال: (ليس من السهل أن يكتب المرء عن "معركة غوط شيكة" التي جرت بوادي سوف، أو أي معركة أخرى جرت أثناء الثورة الجزائرية في أي مكان من أرض الوطن، وذلك لعدة أسباب، منها أن الكتابة عن تاريخ الثورة ما تزال محفوفة بالمخاطر والمزالق لعدم توفر المادة الضرورية للبحث ولكون بعض الذين شاركوا فيها ما يزالون على قيد الحياة وهم لهم رأي في كل ما قيل ويقال عن مسيرة الثورة وطريقة المعارك مع العدو ...). (2) ولكنه مضى في الكتابة، وركز على تاريخ الحركة الوطنية، وربطه بالمعركة، فقدم لها بالتعرض للخلفيات الجغرافية والاجتماعية والسياسية والعسكرية لبوادي سوف قبل المعركة، ثم فصل في مراحلها وما ورد حولها من أخبار،

(1) حوارات، ص ص 150-151.

(2) أبحاث وآراء، ج3، ص ص 101-102.

وخلص إلى نتائج عديدة، تخص الثورة وأعداءها. ومما قاله في آخر النتائج: (إن معركة غوط شيكة لم تكن هي المعركة الأولى ولا الأخيرة التي جرت على تراب سوف، فقد سبقتها عدة معارك، كما ذكرنا، وحدثت بعدها أخريات، وما هذه المعركة إلا معلما من معالم الثورة الوطنية وجزءاً من أحداثها الكبرى التي تضافرت وتشابكت وتصادعت حتى حققت الانتصار.)⁽¹⁾ وبالتعمق أكثر في منهجيته في دراسة المعركة، وإسهابه في عرض تفاصيلها، ودقائق أمورها، واستخلاص العبر بأسلوب متميز، ولكن الإطناب كان كبيراً، كأنما يريد التوثيق أكثر من الكتابة، حتى تكون في متناول الأجيال كمادة تاريخية، وروايات شفوية، تنسب لأصحابها، بينما كانت الوثائق شحيحة ونادرة يومئذ. ولولا الخروج عن حدود هذا البحث لأطلت في التحليل والعرض لهذه الكتابة النموذجية.

(3) آراء سعد الله ومواقفه من الكتابات حول الثورة الجزائرية:

طالما طرحت على الكاتب تساؤلات، من طلبته، أو أثناء الحوارات الصحفية، أو من خلال واقع يلح عليه في إبداء الرأي حول بعض الكتابات الأجنبية والوطنية على حد سواء، ويقتضي الأمر في بعض الأحيان المبادرة إلى تسجيل مواقف، وإصدار أحكام على ما كتب في تاريخ الثورة الجزائرية، ويمكن الوقوف عند بعض تلك الآراء والمواقف التاريخية:

أ - آراء المؤرخ "سعد الله" حول الكتابات المنشورة:

. رأيه حول الكتابات الفرنسية: (إن الفرنسيين يكتبون، أولاً باعتبارهم طرفاً في القضية، وثانياً باعتبارهم في موقع القوة، لأن الحرب جرت خارج فرنسا (في مستعمرة)، فهي لا تمس كل القطاعات الاجتماعية والسياسية عندهم ولكن جزءاً منها فقط، رغم أن الثورة الجزائرية قد مست فرنسا في الصميم...) (2)

وما يتخوف منه، أن تصير - الكتابات الفرنسية - مرجعاً أساسياً في تاريخ الثورة: (أن ما نخشاه حقاً أن تصبح "الأدبيات" الفرنسية - كما أطلقت عليها - هي المرجع الوحيد للجيل الحاضر من الجزائريين أنفسهم عن تاريخ ثورتهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى تصبح هي

(1) نفسه، ص 148.

(2) قضايا شائكة، ص 145.

المرجع أيضا لغير الجزائريين الذين يرقبون في التعرف على مسيرة الثورة الجزائرية. وهكذا تصبح الكلمة الفرنسية هي الفیصل في تاريخ الجزائر كله، ماضيه ومعاصره - تماما كما كانت كتابة(قزال) هي الفیصل في التاريخ القديم وكتابة(قوتيه) هي الفیصل التاريخ الإسلامي، وكتابة(قرامون) هي الفیصل في التاريخ العثماني، وكتابة(جوليان) هي الفیصل في التاريخ المعاصر، ألا ينذر ذلك بخطر كبير).⁽¹⁾

. رأيه حول الكتابات الوطنية: (أما نحن فإننا بالعكس قد وجدنا أنفسنا في صلب التاريخ أو في دائرة ضوء التاريخ بعد إن كنا مهمشين تماما - كل شيء جديد تقريبا: التسجيل والحفظ والتحرير والاختيار والنشر والمناقشة الخ. إنها عملية مخيفة لمن لا دراية له. إننا نخشى الاقتراب من الوثائق، ونجهل كيف نستغلها ولا نحسن الفرق بين ما يصلح للنشر الآن وما لا ينشر إلا بعد جيل كامل، ولا نملك وسائل النشر ولا حرية المناقشة، وليس لنا تقاليد في المجادلة والحوار والديمقراطية . وما زلنا نفضل السكوت ودفن الماضي على الحديث والكتابة وكشف التجارب التاريخية).⁽²⁾

ورأيه في كتابة تاريخ الثورة فيه تطور زمني مستمر، ففي عام 1976، كان يرى أن يكتب من غير الأكاديميين، لتوفره في ذلك الوقت: (لكي لا يبقى المجال مفتوحا أمام المغرضين يجب في نظري كتابة تاريخ الثورة من طرف مؤرخين غير اكاديميين، أو غير اختصاصيين، لأن هذا أمر ممكن. وعلى أجهزة الدولة المكلفة بالدراسات التاريخية أن تلعب دوراً في هذا المجال. أما كتابة تاريخ الثورة من الوجهة الموضوعية فما زال الوقت في نظري لم يحن بعد، لعدة اعتبارات منها:

أولاً: قرب أحداث الثورة منا.

ثانياً: عدم توفر الوثائق الضرورية للموضوع.

ثالثاً: لأن المؤرخ في هذه الحالة لا يستطيع أن يقول كل الحقيقة أحياناً).⁽³⁾

(¹) نفسه، ص 146.

(²) قضايا شائكة، ص 145-146.

(³) حوارات، ص 11.

- بينما نجده في عام 1988، يثني على ما يكتب من الأطراف المختلفة كعمل أولي ضروري، ويدخل بصفة عامة في الجمع، ويقبل به الباحث لتوفير المادة، ولكنه لا يكفي وحده: (حسب علمي، إن ما يجري الآن هو تنظيم الملتقيات الجهوية، وعقد بعض المؤتمرات، ونشر بعض البحوث والتحقيقات والشهادات، وجمع بعض الوثائق وتسجيل الأحاديث ونحوها، وهذا عمل جيد وهام وضروري لجمع وحفظ تراث الثورة، ولكن ذلك لا يكفي وحده).⁽¹⁾

- ويرى أن من التحديات التي تجعل تاريخ الثورة يتعثر في انجازه هي الوثائق التي بقيت غير مستغلة الاستغلال الجيد: (ذلك أن الذين لديهم الوثائق ليست لديهم الثقة الكاملة في نجاتها، إذا سلموها، وما يزال الكثير من الناس "يعرفون" عن أحداث الثورة أشياء هامة، ولكن معرفتهم غير مستغلة. وهناك طرق جديدة لجمع وحفظ وثائق الثورة لم تدخل عندنا حيز الاستفادة منها. وفي العالم مراكز بحث تحتوي على وثائق لتاريخ الثورة الجزائرية لم نعمل حتى الآن على جلبها أو تصويرها. ثم أن هناك تقنيات معينة لصياغة الوثائق وفهرستها وترتيبها وجعلها في متناول الباحثين، ولا أعرف أن لدينا الآن من يقوم بهذه المهمة الصعبة).⁽²⁾

والرأي النهائي عنده، أن تاريخ الثورة يكتب على مراحل، وللأجيال المتعاقبة دورها في تجليته، وكتابته بموضوعية، لأن صناع الحدث لا يمكنهم البوح بكل شيء، وهو يتألم لذلك: (لا أعتقد أن هناك تاريخاً واحداً للثورة الجزائرية بل عدة تواريخ، وثورتنا باعتبارها من الأحداث العالمية الكبرى لن يكتبها جيل واحد بل أجيال، وستخضع لجميع التفسيرات الممكنة من مادية ومثالية وقومية وإقليمية، وأنا بصفتي من جيل الثورة لا أستطيع أن أصنف نفسي كطرف، وإنما جزء من كل هو هذا الجيل الذي قام بثورة عظيمة ولكنه لم يستطع أن يصفها لمن يأتي من بعده، لأنني حزين من هذه الجهة، ولكنه الحزن المكثوم الذي يحرق صاحبه قبل أن يحس به الآخرون).⁽³⁾

ب - مواقف من الكتابات الأجنبية والوطنية:

(¹) قضايا شائكة، ص 145-146.

(²) قضايا شائكة، ص 147.

(³) نفسه، ص 80.

ب - مواقفه من الكتابات الأجنبية والوطنية:

المواقف مما كتب عن تاريخ الجزائر وثورتها، لا يخرج عن تاريخ الاستعمار المعروف بنظرته المنحازة، والكتابات الوطنية التي تتفرع فيها الأفكار، من أقصى اليمين إلى اليسار، وكان له مواقف من تلك الكتابات:

- **موقفه من الكتابات الفرنسية:** يقف منها موقف الحذر، لأن الأمانة تنقصها، فضلا عن الخطر في تلميع تاريخ الاستعمار، أو التغاضي عن أخطائه: (هل يمكن للفرنسيين أن يكتبوا بموضوعية عن الجزائريين؟ على كل حال إن ذلك ليس مستحيلا، ولكننا لا نتوقع ذلك. إن التاريخ الحقيقي في نظرنا هو الذي يكتبه أبناء البلد عن أنفسهم لأنه جزء منهم ولهم. أما وجهات النظر الأجنبية فتظل عملاً مساعداً. ⁽¹⁾

- **موقفه من بعض الكتابات الوطنية:** ذكر أن الجزائريين لم يترثوا في الكتابة عن الثورة وإن كتبوا، وهم فئات: (... ولكنهم "يجتهدون" فيها، كل بطريقته وأسلوبه وتخصصه وخلفياته. فهناك الوطني وهناك الموتر، وهناك العسكري والسياسي والدبلوماسي، وهناك الصحفي والمخابراتي والإعلامي، وهناك الأديب والفنان والمؤرخ. إننا "نعفس" تاريخ الثورة تعفيسا وندوس عليه دوسا عن طريق الاجتهاد الحر الذي ذكرته ، دون مراعاة لحرمة صانعيه أمواتاً أو أحياء. ⁽²⁾

وعموما فهو يرى أن الجزائريين مازالوا لم يكتبوا تاريخ ثورتهم كما ينبغي، ومن كتب منهم فهو احد ثلاث:

(1) **الخائف:** فهو يتقرب، ولا يملك الشجاعة للكتابة، لأن خوفه يعتقد أنه يجر عليه المصائب والمحن.

(2) **العاجز:** وهو الذي لا يفقه فن الكتابة، ولا علم التاريخ، فهو يكتب بدون منهج، فيكسر الأخطاء، ويعرض الحقائق بشكل مشوه.

(¹) حوارات، ص 38.

(²) حوارات، ص 156.

(3) المغرور: الذي يعتقد في نفسه أنه صانع تاريخ الثورة، وغيره من الناس مجرد أتباع أو رعا، ولا يجرؤ على البوح بما عنده، ويبقى متحفظا، ويظن أن الغير لا يفقه شيئا مما في نفسه، وهي من علامات التعالي والغرور. (وفي وسط هذه المواقف السلبية ضاعت أخبار الثورة حتى الآن).⁽¹⁾

. الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة الأولية، التي توغلت في استكشاف فكر ونشاط الدكتور سعد الله، وعلاقته بالثورة، كتابة، ونقدا وتوجيها، وخرجت بعدة حقائق مجمل.

- ويمكن استخلاص النتائج التالية:

- كان للبيئة الصحراوية المحافظة، دورها في زرع القيم في نفس الشاب أبو القاسم سعد الله، عندما تفتحت أفكاره على نشاطات الحركة الإصلاحية، وتوجيهات شيوخها، وكتابات رجالها، وقد تتسم عبيرها مبكرا، ثم نضجت الثمار، لما احتك بمختلف الشرائح في جامع الزيتونة، وولج عالم الكتابة في الصحف، وقرض الشعر وتذوقه، وكل ذلك، ساهم في صقل أفكاره، وتهذيب روحه، وتجلى في نهايته في بناء شخصيته، وتحديد معالم مسيرته الثقافية والثورية.

- رغم أن الروح الثورية كانت تغلي في ذاته قبل اندلاعها، وتفجرت في ينبوع كتاباته، إلا أن انخراطه في الثورة تأخر إلى سنة 1955، عندما احتضنته القاهرة، التي جمعت ثلة من قادة الثورة من العلماء والمفكرين والسياسيين المحنكين، فعاش في كنفهم طالبا يبتغي المعرفة، وشابا يفور حماسا ونشاطا وحيوية، وكانت كتاباته خير معرف بشخصه في تلك الأوساط، حينما بدأ يتألق ولاسيما في عالم الشعر والأدب، فضلا عن عمله في مكاتب جبهة التحرير، ومشاركته في اتحاد الطلبة، ومساهمته في التعريف بالثورة في المناسبات، والقيام بالأعمال التي يكلف بها من القيادة، فكان لذلك الاحتكاك دوره في رسم مساره الثوري، والذي تجلى في نشاطه الدءوب بالحي الجامعي في أمريكا، لأنه وضع قضية بلاده في سلم أولوياته، بل كان للثورة دورها في توجيهه إلى دراسة التاريخ والتخصص فيه، وخدمة التاريخ الوطني بالبحث العلمي.

(1) قضايا شائكة ، ص 76.

- لقد تبلور لديه تصور واضح في تاريخ الثورة، الذي يشمل جوانب ومجالات شتى، مازالت في حاجة إلى إثراء، وشرح وتفصيل، ومن هذا المنطلق، فهو يعتقد أن تاريخ الثورة مازال لم يكتب بعد، ويقصد الكتابة الأكاديمية المنهجية، وهو يحث على المبادرة للكتابة من كل الأطراف القادرة على ذلك، وحسب الاختصاصات، ويرى أن تتم الكتابة بمرحلية، فهناك جانباً يمكن الاشتغال فيه آنياً، وجوانب تمس صناع الثورة، مع قرب الزمن من الحدث، فيمكن تأجيلها حتى تكون الكتابة أكثر موضوعية وحيادية وتحرر من القيود الراهنة، (لأن المعاصرة حجاب).

وهو حينئذ، يفرق في منهجية ما يكتب، بين الكتابات الشعبية التي تساعد على توفير المادة الخبرية، وطرح إشكالات تفيد الاختصاص، بينما تقتضي الطريقة العلمية، التمهّل والتريث ريثما تتوفر الوثائق، ويكون الوقت مناسباً، لأن المنهج العلمي، هو الوحيد، والكفيل بكتابة تاريخ الثورة بموضوعية، وهو يتمنى أن يحقق ذلك - بنفسه - في الجزء الرابع من الحركة الوطنية الجزائرية، الذي يساير التسلسل التاريخي، والذي فكر في انجازه، ولا ندري هل تحقق المشروع، أم بقي مجرد حلم يكمله من يلتزم بمنهجيته، ويكون حينئذ وفيما لخطه العلمي.

- ساهم سعد الله ببعض الكتابات المحدودة في تاريخ الثورة، وهي شذرات موزعة على كتبه الفكرية، وتتضمن المحاضرات، والمقالات التي كانت من وحي المناسبات، وهو يؤكد فيها على الصراع على قيادة الثورة، وكيف تجسد بعد الاستقلال، وأثره على المسيرة السياسية للجزائر، ويشير في موضع آخر إلى انتقاد الثورة لفلسفة نابعة من فكر منظرين، مثلما هو مشهور لدى شعوب مجاورة، لأن الثورة الجزائرية - في نظره - انطلقت بعفوية، وكانت فلسفتها هوية الشعب، ومرجعيتها "القرآن الكريم ومن اشتق منه من عناصر الحضارة". أما الكتابات المنهجية، فتجلت عنده في الكتابة عن معركة غوط شيكة بوادي سوف سنة 1955، ولكنه تحفظ أثناء كتابته للمقال، وصرح بأنه يريد تلك المعركة بتاريخ الحركة الوطنية، واستعرض مختلف مجريات المعركة - من أفواه بعض صناعها، أو شهود العيان فيها - وحاول في الختام، عرض النتائج، أكد فيها على تضحية الشعب، وكيف تمسك بهويته، مع إبراز نماذج من البذل والتضحية والشجاعة والإقدام؛ وقد أُنِيب في الكتابة كأنما يستهدف التوثيق من صناع الحدث أكثر من التحليل والنقد.

- وكانت له آراء حول ما كتب من طرف الفرنسيين، باعتبارهم طرف في القضية، وبهمهم هذا التاريخ، ولكن الشكوك تحيط به، وأخوف ما تخوّفه، أن يُعتمد من طرف المثقف ويرجع إليه عامة الشعب، والجيل الجديد، وهذا جعله يحث على دفع الكتابات الوطنية، وخصوصا جمع الوثائق وتنظيم الملتقيات، مثلما فعلت منظمة المجاهدين، وهو يدعو إلى المسارعة لجمع المادة التوثيقية، والروايات الشفوية، ولو كان في مركز خاص، على غرار ما عند الأمم الأخرى، ولا مهرب من كتابة التاريخ على مراحل، وتساهم فيه مختلف الأجيال.

- وكانت له مواقف على ما كتب، ونشر، فيقف موقف الحذر المتحفظ من الكتابات الفرنسية، التي لا تتوانى على تلميع صورة الاستعمار وتمجيده، والإشادة بنشر الحضارة، والتغاضي عن الأخطاء التي ارتكبتها زبانيته في الجزائر.

أما موقفه من الكتابات الوطنية، فله عليها تحفظات، لأن الذي يكتب، لا يفقه سبل وأساليب ومناهج الكتابة التاريخية، فيروج الأخطاء، ويبسط التحليلات المجافية للموضوعية، دون مراعاة لحرمة الثوار، أحياء وأمواتا، وتكفي صرخته المدوية، التي أعلن من خلالها أن تلك الكتابات هي "تعفيس لتاريخ الثورة" أو الدوس عليه بدون تحمل للمسؤولية العلمية، وإن نظرة الجزائريين لكتابة تاريخ الثورة، مازال يشوبها الكثير من القلق، فمنهم الخائف من التدوين، والعاجز عن التحليل، والمغرور الذي يحتفظ بالمعلومات ويبخل بها، معتقدا أن ذلك هو عين الحق، وفي هذا الخضم ضاع تاريخ الثورة وماتت أخبارها مع صناعها. وأمل في بروز كتاب أمثال سعد الله تكتب تاريخ الثورة بكل أمانة ومسؤولية تاريخية.

- أما توصيات هذه الدراسة:

- العزم على إصدار كتاب جامع لتاريخ الثورة، تعدّه نخبة من الباحثين الأكاديميين، تعبيرا على الوفاء لروح سعد الله، واعترافا بفضلته على تاريخ الجزائر، وتحقيق أمنيته في كتابة الجزء الرابع للحركة الوطنية الجزائرية.

- تأسيس مركز دراسات حول الثورة الجزائرية، ينتمي للجامعة، ويحتوي على الوثائق، ويسهر عليه طاقم من الباحثين الدائمين.

- تكثيف الأعمال التي تخدم موضوع الثورة تطبيقيا، بإنشاء مخابر وفرق البحث التي تدرس هذا الموضوع الاستراتيجي من تاريخنا.

- السعي لإصدار مجلة دورية تهتم بتاريخ الثورة، ومختلف الدراسات، وتكون بمثابة الدليل العلمي للثورة الجزائرية.

- التأكيد على موضوع المثقف والثورة في مختلف المشاريع العلمية الجامعية، كالملتقيات الفكرية، والأيام الدراسية، والرسائل الجامعية، والتخصصات في تاريخ الجزائر المعاصر، في الليسانس والماستر.

- المصادر المعتمدة:

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، الأجزاء 3، 4، 2.
- (— ، —): الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985
- (— ، —): حوارات، دار المعرفة ، الجزائر، 2011. ضمن مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011.
- (— ، —): حصاد الخريف، دار المعرفة ، الجزائر، 2011.
- (— ، —): في الجدل الثقافي، دار المعرفة ، الجزائر، 2011.
- (— ، —): حصاد الخريف، دار المعرفة ، الجزائر، 2011.
- (— ، —): منطلقات فكرية، دار المعرفة ، الجزائر، 2011.
- (— ، —): قضايا شائكة، دار المعرفة ، الجزائر، 2011.
- مراد وزناجي: حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات دار الحبر، الجزائر، 2008.

الوادي في: 2014/03/16

د. علي غنابزية - جامعة الوادي